

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولد الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله، وفيها غرقت سنجار من سيل المطر، وهلك منها خلق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل ، فتعلق المهدي في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بركياروق، فحيثئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد، وأصحاب الاطراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر، وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ومن عدله أنه اشترى عدة ممالك من التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان، فأوصل إليه البعض، ومطل الباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بهال التاجر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن أداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى للبيت الأتابكي، فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكرهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إتهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعته من البلاد إلى حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مصر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسة توفى الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن» يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الإخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثمان عشرة

وخمسائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه،
ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن
عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسناً منها:

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً
فكن عبد المالكه مطيعاً
وإن لم تملك الدنيا جميعاً
كما تهواه فاتركها جميعاً
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعاً
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يجيى بها وضعياً

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ
الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار
ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد
الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد
عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدم والده في الأيام الركنية،
وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم
أكثرهم اتباعاً لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط
وشحنية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد
شأنه عظماً وهاب الأمير ديبس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة
ناحيته، وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ ديبس بقصد
بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فانهزم
عسكر ديبس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر
حسن في هذه الواقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك في أول المحرم سنة
سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسيير معه إلى الموصل، فقال زنكي لأصحابه: قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم أتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرناقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة، فتهدده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لا يستعين في وضوئه

بأحد، فقرّر السلطان ولده عز الدين مسعود على ما كان لأبيه من الأعمال، وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحمّاه وجزيرة ابن عمر وغيرها، وكان شابا عاقلا فضبط البلاد، فلم تطل أيامه وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاوولي، وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاوли أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرنا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاوли ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبوا البلاد لعقاد الدين زنكي، ففعلا وقالوا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاوли عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاوли إلى لقاته، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها، و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوض إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصلاح محمد الياغيساني أمير حاجب الدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطا معه، وقربا منه، ورتب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم، وتتابع غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرر شرهم، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق، وكانت سراياهم من ديار بكر إلى آمد، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم في ذل وهوان، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وأتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن أثار العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها، حتى في الرجا التي على باب الجنان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحانه وتعالى إلى بلاد المسلمين، ولاها عماد الدين زنكي، فغزا الفرنج في عقر ديارهم، وأخذ للموحدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم

حصونا ومعاقل، وسيأتى تفصيل ذلك، وما فتحه من البلاد الاسلامية هو وابنه من بعده، إن شاء الله تعالى.

فصل

ثم شرع زنكي رحمه الله في أخذ البلاد، فافتتح جزيرة ابن عمر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار، فتسلمها وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه، ثم قصد الرحبة، فملكها قسراً، ثم افتتح نصيبين، وسار إلى حران، وكانت الرها وسروج وغيرها من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله، وأهل حران معهم في ضيق عظيم، فراسلوا زنكي بالطاعة، واستحثوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية، والجزرية، وكان أهم الاشياء عنده عبور الفرات، وملك مدينة حلب، وغيرها من البلاد الشامية، فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحصن بزاعة، وحاصر حلب، ثم فتحت له، فرتب أمورها، وسار عنها إلى حماه فملكها، وقبض على صاحب حمص وحاصرها، وذلك سنة ثلاث وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهم من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً، وقصدوا زنكي فلقبهم فهزموهم، وملك سرجة ودارا، ثم صمم على الجهاد، فنزل حصن الأثارب، وكان أضر شيء على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً، فهزموهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدة طويلة، ثم رجع إلى الحصن فملكه عنوة فأخرجه، ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج، ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبدلون له المناصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور ديبس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسة توفى السلطان محمود همذان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليماً كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفى السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهياً شجاعاً مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المالك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّوا من هبة الخلافة ما كان قد درس لاسياً في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فإنه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلون في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر الله، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همدان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاوли أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينة ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيما، وكان زنكي مشغولا بما تقدم ذكره، ولا يمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل سرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أنظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطرحوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يرأسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يرأسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقّة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعوه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لا يبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم
تذلّ لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً
كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه
فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته به بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقدوه وشيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدينا كريم
أيلتمس الفرنج لديدك عفوا
وأنت بقطع دابرهم ازعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
ييوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
منية جو سلينهم اللثيم
أقام بطوف الافاق حيناً
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله عليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسموم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان
صاحب حماة.
وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذم فيها العيش حتى صدمته
فقال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها
نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند
ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء الله تعالى، ومنها:
وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
أزحت به ما في الجناجن (٣٩) من نبل
اتاك بمثل الروم حشدا وإنه
ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل
فقاتلته بالله ثم بعزمة
تصك قلوب العاشقين بما يسلي
توهم أن الشام مرعى ومادري
بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (٤٠)
فطار وخير المغنمين ذمكاؤه
إذا اراد عنده مغنم المال والأهل

قال ابن الاثير ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما
وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو
ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت
بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال
طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج
وأخبره، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين
ترتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري قاضي

الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده، وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

فصل

في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير: كانت شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق بن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاصبي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً، فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرضوا لها لحصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه، فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها، فاضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان، وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشام، فإنه كان لا يرى المقام بل لا يزال ظاعناً إما لردّ عدوّ يقصده، وإما لقصد بلاد عدوّ وإما لغزو الفرنج وسدّ الثغور، وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألد في سمعه من الغناء، لا يجيد لذلك كله عناء.

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوماً عليه، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جدّه

طغتكين، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهر زوري بمكاتبة جماعة من مقدّمي أحداثها وزناطرتها واستمالتهم واطاعهم في الرغائب والصلوات، ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين، وجدّد عليهم العهود وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك فقال: لأرى هذا رأياً فإن البلد ضيق الطرق والشوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرّق لضيق المسالك فيطعم فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أنر الأمور وساس البلد فلم يتغير بالناس حال، وأرسل إلى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه في الملك مكان أبيه فمشى الحال بتمكين معين الدين أنر وحسن تدبيره، وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها، فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك وحصرها عدّة شهور فملكها عنوة، وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزداراً، وعزم على العود عنها إلى دمشق فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيى بن أبي طي الحلبي: واتفق أن الأمراء لما نزلوا من بعلبك أفسدوا ذخائرهم فقبض عليهم أتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان وليّ قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني، فحكى أنه أحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له أمرد كأنه فلقة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتني قبل ولدي لثلاث أراه يعالج سكرات الموت، وكان نجم الدين أيوب واقفاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابك، فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبك، وقيل إن نجم الدين قد ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكاً، واستقر فيها هو وأهله، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي فأخرجه منها على ما سنذكره، ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق فنزل البقاع، فوردت هدية صاحب دمشق، ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشار نجم الدين على زنكي بقبول ذلك وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب، وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم وقد ألف أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلك، فامتنع زنكي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتاك الشهد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج ، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه ، فلقبهم بالقرب من حصن بارين ، وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهريز (٤١) ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم ، وأسلموا عدّتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح ، ثم سار الشهد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً ، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم ، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك لقوة الحصر عليهم ، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان ، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقبتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن ، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد أخرجوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بالشهد رحمه الله هذا الضر العظيم.

وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب ، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنسى ينفع الحذر
وهي الصوارم لاتبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لابل جنده القدر
سلوا سيفوا كأغماذ السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سنه يهراق البصر
ولوا تضيق لهم ذرعاً مسالكهم
والموت لا ملجأً منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لآعيننا ولا أئرا
يخاف والكفر لآعين ولا أئرا
فلا تخف بعدها إلا فرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لأفارقت ظل محيي العدل لأمعة
كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا اثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة
كأنما حلّ في أكتافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها
ودام لنقضك ابـرامها
وزلت لعيشك أقدمها
وزال لبطشك إقدامها
ولم تسلّم إليك القلو
بهواها الماصح إسلامها
أيماحيي العدل مانعا
هأيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة
أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تفتيك الاسو
دواليض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو
فحتى تشاء مهاشامها
وصارت عواري أكتافه
متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات
أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب
وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في
جمع عظيم، فأنحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ
أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي
كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر
البلاد وكثرة العدو، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الدين: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها، فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار، قال: فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة وعدني السلطان بانفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشيء وكتب الشهيد إليّ متصله يحثني على المبادرة بانفاذ العساكر، وأنا أخاطب فلا أزداد على الوعد.

قال: فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم، أحضرت فلانا (وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء) فقلت: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم، واستغاثوا بصوت واحد: «وا اسلاماه» «وا دين محمداه» ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين، ثم وضعت انساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه، وألقى عمامته عن رأسه وصاح، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي، وبطلت الجمعة وسار الناس كلهم إلى دار السلطان وقد فعل أولئك الذين بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان ويكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط وخاف السلطان في داره، وقال: ما الخبر؟ فقبل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة، فقال: أحضروا ابن الشهرزوري، قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه لأنني قد عزمت على صدقه وقول الحق، فلما دخلت عليه قال: يا قاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولأشك ان السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحو اسبوع، ولئن أخذوا حلب، انحدروا إليك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر إليهم، فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعرفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدد استئذانه في ذلك، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائين لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر، فلما خوطب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجّة فيملكها، فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابرالدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس - يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فان شغلا واحد يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضاً عنها، وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتاكب الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية » نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتاكب بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته، والخطبة له فأجابته إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسائل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له: إن ملك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتاكب عماد الدين، فإنها قد وليها قبله مثل جاوولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة، ولا يقدر على حفظها، ولا يزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتاك ، فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بهال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدّة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم، وعز الاسلام به، ومن الأسباب المانعة له أيضا أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله، فأرسل إليه فعاد الجواب: إنني لأأريدك مهما السلطان ساخط عليك، فألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسول إلى السلطان يقول له: إنني لما بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم اجتمع به ورددته إلى بابك، فحل هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار، ثم إن الأمور تقلبت، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان ، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عدّة بلاد منها طنزة وأسعد، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حيزان، وأخذ من أعمال ماردين عدّة مواضع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسل عسكرياً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقّة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لا ينال منها غرضاً مادام جوسلين بها، فأخذ في أعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها يقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء (٤٢) » فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عريتها من أساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى

ظننت البربحراً من سلاح

والسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليلى بهيم
وغررتة عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا
وهيئته جناحاً للجناح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها،
وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملا الناس أيديهم من
النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر
بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن
آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان
دائراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان
بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار
الجزرية من معرة الفرنج وشهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمينين، وكان
فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من
الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح
الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من
العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات
الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم
وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم
قال: حدثني بعض إخواني أن أتاك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه
شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد
اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح، ثم إن

نفرًا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها
هو السيف لا يغنيك إلا جلاده
وهل طوق الاملاك إلا نجاده
وعن نغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخرأ بطوليه
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن الله ما لا يستطيع زياده
ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهبي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوب اطرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فواده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصره
ولم يغن عن القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفل حديث الهدى عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حر القراع مؤيد
بصير بتميرين الألد لداده
كان سن الملع الأسنان حوله
سرار ولكن في يديه زاده
فأضرمها نارين حرب وخذعة
فمارع الأسور هـا وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتما نفاذه
فيأظفر عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فلا مطلق الاوشد وثاقه
ولا موثق إلا وحل صفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده
ولا مصحف إلا أنار مداده
فان يشكل الابرنز^(٤٢) فيها حياته
وإلأقل للنجم كيف سهاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونها
كما يتنزع عن حريق حراده
إلى أين يا أسر الضلالة بعدها
لقد ذل غاويكم وعز رشاده
روي دكم لمانع من مظفر
يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه
رمى سدذي القرنين أصمى سداده
وقل للموك الكفر تسلّم بعدها
مما الكهان إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى
في أطال ماغال الظلام امتداده
ومن كان املاك السموات جنده
فأية أرض لم ترضها جواده
ولله عزم مءسيحان ورده
وروضه قسطنطينية مستراده

وله من قصيدة هنا بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أولها:
هي الجنة المأوى فهل من خاطب ..

يقول فيها:

إن الصفائح يوم صافحت الرها
عظفت عليها كل أشوس ناكب

فتح الفتح مبرأبتاهمه
كالفجر في صدر النهار الأيب
لله أية وقفة بدريه
نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصره
بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تم ريح الصبا
جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب
لأين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغركم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الوائب

وقال ابن منير:
صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي اعطاكه الله
يا صار ما يمين الله قائمه
وفي أعالي أعادي الله حذاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيهه إذا الأملاك أشباهه
فذاك من حاولت مسعاك هتمه
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قل للاعادي الاموتوابه كمد
فالله خيكم والله اعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته
تقى وتسهر للمعروف عيناه
مازال يمسك والأيام تخدمه
فيما ابتلاه وتدني ماتوخاه
حتى تعالت عن الشعري مشاعره
قدرا وجزاوت الجزاء نعلاه
وقد روى الناس اخبار الكرام مضوا
وأين مما روه ما رأينا
أين الخلاف عن فتح أتيح له
مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج
مقطوبة بفتية تم المسك رياه
فتح أعاد على الاسلام بهجته
فاقر مبسمه واهتز عطفاه
يهدي بمعتصم بالله فتكته
حديثها نسخ الماضي وأنساه
إن الرها غير عمورية وكذا
من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزما بغى أحد
من الملوك لها وقما (٤٤) فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحنه
رأي يبيت فويق النجم مسراه
مشمرا وبنو الاسلام في شغل
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه
وعامر الجود لما فتح مغناه

يا نعمة الله يستصفي المزيديها
للشاكرين ويستقنى صفاياها
أبقاك للدين والدينا تحوطها
من لم يتوَّجك هذا التاج إلا هو

ولا بن منير من قصيدة تقدّم بعضها:
أيامك ألقى على الشرك ككلا
أناخ على أماته كل كل الثكل
جمعت إلى فتح الرها سدبابه
بجمعك بين النهب والأسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه
وتوج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده
جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجرّدت لاسلام دون ملوكه
تبثك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفظها
يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى:

بعما دالدين أضحت عروة الديـ
من معصوباً بها الفتح المين
واستزادت بقسيم الدولة القسـ
م من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عيناً لم يزل
همها تشر يد همم الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد
فقات غيضاً عيون الحاسدين

كل يوم مرم من أيامه
فهو وعيد عائد للمسلمين
لوجرى الانصاف في أوصافه
كان أولاه أمير المؤمنين
ماروى الراون بل ماسطروا
مثل ماخطت له أيدي السنين
إذ انسخ الشرك في أكنافه
بمئي ألف تلاه بامئين
وقعة طاحت بكلب الروم من
قطعة البين إلى قطعة السوتين
إن حمت مصر فقد قام لها
واضح البرهان إن الصين صين
والرهالو لم تكن إلا الرها
لكفت حسا لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها
ومضى لم يجو منها قسطين
ولكم من ملك حواها
فتح الحين وسما في الجين
هي أخست النجم إلا أنها
منه كالنجم لرأي المبصرين
زاره سايزار في أسد وغي
تبدل الأسد من الزار الأنين
صولجواب البيض بضر بث
رالهام في ساحاتنا شر الكرين (٤٥)
يالها همة ثغر أضحكت
من بني القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنست ذلة
بعدماجاست حوايا جوسلين

سروج مـذوعت أسراجـه
فرقت جماعها عنها عاضين
تلك أفعال رماها الله من
عزمه الماضي بخير الفاتحين
شام منه الشام برقاً ووقه
مؤمـن الخوف مخيف الآمنين
كم كئيس كنست قدراها
منه بعد الروح في ظل السفين
دنت الأجال من آجالها
فأحلتها القطاب بعد القطين
ومنار يجتلى صلبانسه
بين بيض تبارى في البرين
قرعته البيض حتى بدلت
قرعة الناقوس تشويب الأذنين
بالقسيمات مقسوم لها
دهر في علكك لجين أو الحين
سبل بها حران كم حرى سقت
برداً من يوم ردت ماردين
شمطت أمس شمشاطها
نظم جيش منهج للناظرين
وغدا يلقي على القدس لها
كل كل يدرسها درس المدرين
همة تسي وتضحى عزيمة
ليس حصن إن نحتـه بحصين
قل لقوم غرهم أمهاله
ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من
فر منه فشحج الغافلين

وهو يجيى بمسكاعروته
إنها جبال لمن تساب متين
من يطع ينج ومن يعص يكن
من غداة عبدة لالأخترين
بك يا شمس المعالي ردت الـ
روح في الميتين من دنيا ودين
أقسم الجدب أن تبقى لكى
تملك الأرض يميناً باليمين
وتفيض العدل في أقطارها
منسيام مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارك كيف انتقلت
كعبة محفوفة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيدها
من نظيم المدح بالدر الثمين
كلما أخلص فيهما دعوة
لك قالت ألسن الخلق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها
من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على
الفرات، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأتاه الخبر بقتل نائبه
بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحل عنها خوفا
من أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحل عنها
سير إليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكرياً
فسلمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين، وسببه أن الملك
ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان مسعود، وأصحاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود، فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولا يجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاء ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخذعه حتى أصعبه إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها، وحيثما يستقر له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غير الطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشاً إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلماً إلى الأمير ديبس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيته حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلا عقلته، وإن ثقل طبعه وإلا ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصدع القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط بماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجملة وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخييه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي (٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بإرسال عسكر إلى حصن فنك يحصره، فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجال فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة، وهو من أمنع الحصون مطلقاً على دجلة وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقعة عماد الدين زنكي يمينه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أولها:
يا بـدر لـأفـلـل ولا محاق
ولا يـرم مشرقك الا شراق

بالدين والدنيا الذي يشكو وهل
يهتز فرع لم يقمه ساق
لن تورق القضب ويجري ماؤها
إلا إذا ما التائت الأعراق
إن الرعايا ما سلمت في حمى
للخطب عن طروقه إطراق
غرست بالعدل لهم خمائل
ترتع في حديقها الأحداق
يا هضبة الدين التي عاذ بها
فعداد لا بغتاء ولا أرهاق
لو لم تحطه راحلا وقافلا
أصبح لاشام ولا عراق
عماد دين منذ أقام زيغته
حيى ومات الشرك والنفاق
يا حيي العدل الذي في ظله
تسر بلت زينته الأفاق
يفديك من لان مهاد جبينه
لما نبأ بجنبك الاقلاق
من يشأسيفك أنبطت له الـ
عذب وماء عيشه زعاق
تجرع السم ولو لم تحمه
بحده لعزه الصدر ياق
ملك أطراف حمى أطرافها
عزمك هذا للاحق السباق
لو لم ترق ماء كرى العين لما
ساغت بأفواههم الأرياق
شقت من دونهم مرج الردا
وشق أكبادهم الشقاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا
لما اشتكى تذبذب في أهوائهم
توجس للسمع واستراق
تطاولوا لاعدمت أمالهم
قصروا ولا جانبها الاخفاق
توهموها غشقة نائم انجلت
والصفو ومن مشربهم غساق
لكن ألم ألم بقدم
خدا السه النعلها طراق
أركان مديده إلى يد
يجري بها الأجمال والأرزاق
فالنصل يعلى صعداً وتحتته
خدا الحسام وسنار قراق
رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق
ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سيقاق
ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره اره ساق
لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدتك الاخلاق

فصل

في وفاة زكري رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل